سِلسلة بخلاء الجاحظ
للفتيان

بُخلٌ وَعِزَّةٌ

محمد علي قطب





الجَاحظ : أديب العربية بلا منازع، وسيد الكلمة غرف من بحر علم الأوائل، واطلع على الكثير، وحفظ حفظاً هائلاً حتى لكأنه خزانة علم ومعرفَة.

كان ذكي الفؤاد لماحاً، خفيف الروح، حلو الدُّعابَة، حاضر البديهة سريع الخاطر.

قلمه كأنه ريشة رسام فنَّان مبدع، يرسُم الأشخاص بدقة متناهية، في وجوههم وأشكالهم وتحركاتهم وانفعالاتهم ودخائل نفوسهم فلا يستعصي عليه أحَد...

ولقد اتخذ من نقيصة البخل عند بعض الناس مادَة سخرية وتندر فجلّى وأبدع...

بينما أنت تقرأ قصة بخيل على لسان الجاحظ وقلمه تحسُّ أن كل كلمة أو عبارة تقطر نقداً لاذعاً مريراً. ثم تنعكس على صفحة قلبك ونفسك ضحكة ما تلبث أن تظهر على فمك ابتسامة..، أو قهقهة يضج بها صدرك...

كانت مدينة "مرو" بالنسبة له مسرح دراسة وميدان اختبار فركّز على أهلها مجهرَهُ وريشته وقلمه، فأثرى المكتبَة العربية بتراث من الأدب الرفيع.

ونحن - من خلال هذه القصص - نزوّي لك من جديد طرفاً من طرفه، لعل فيها الزاد الروحي والفكري الذي يلزمك.

دار القلم

حكايات "بخلاء الجاحظ" - للفتيان

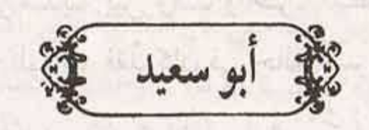
بُخْلٌ وعِزَّة !!!

محمد علي قطب

دار القلم
ص. ب: ٣٨٧٤
بيروت - لبنان

بيروت - لبنان - ص. ب: ٣٨٧٤

الطبعة الاولى
٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م



أبو سعيد

قال الراوي :

يُحْكى أنَّ رجُلاً يُدْعى «أبا سعيد» كان بخيلاً شديد البُخْل، يُضْرَبُ به المثل، ولكنّهُ كان عزيز النَّفْس . . .

وهذا أمْرٌ مُسْتَهْجنٌ(١) مُستغرب، لِأنَّ البُخْل مع عِزّة النَّفس لا يَجْتمعان ! !

ولكنّهما اَجْتمعا في شَخْص «أبي سعيد» هذا . . .

○ ○ ○

الدّائن والْمَدين

وكان لِـ «أبي سعيد» دَيْن على رَجُلٍ من قبيلة «ثقيف»

---

(١) مستهجن : مُسْتَغرب .

مقدارُهُ أَلْف دينارٍ، ولقد حان وَقْتُ الدفْع وَحَلَّ وفاءُ الأَجَل.

فكان يَزُورُ مَدينَهُ بَيْن وقْتٍ وآخر، لِيُطالِبَهُ بالمال، والمدينُ لا يَجِد الوفاء، فَقَدْ كانَ في حالةِ عُسْر...

أما «أبو سعيد» فقد كان أحياناً يَمْكُثُ عند صاحِبِه، يَنْزل في ضيافتِهِ، أَوْ يتناول طعامَهُ.

○ ○ ○

ذات يَوْمٍ...

وفي ذات يوْم من تلْك الأَيَّام...

بَيْنما كانا يَجْلسان إلى مائدة الطعام، يَتناولان الغداء.

قال «أبو سعيد» لصاحِبِه:

ـ لقد كُنْتُ أَعْلَمُ يقيناً حينَ أَعْطَيْتُكَ هذا الدَّيْن أَنَّهُ قد لا يَعُودُ إلى حَوْزتي[1]...، أَوْ أَنَّه سَيكُونُ في يَوْمٍ من الأَيَّام سَبَبَ خُصُومةٍ بَيْننا...

ورُغْم كُلِّ ذلك... فإنَّ شِدَّة حاجَتِكَ إليْه...، هي التي دفعتْني إلى التَغاضي[2] عن ذلك، وتحمُّل العُسْر

(١) حوزتي: ملكي.

(٢) التغاضي: عدم الاهتمام.

والمشقّة، في كثرة السُّؤال، والصَّبْر على النّوال[1].

○ ○ ○

والْيَوْم ـ يا صاحِبي ـ وقد آنْقَضى الأَجَل، وانتهت المدَّة المضروبة[2] بَيْننا للوفاء، وطال آنتظاري... وكَثُرَتْ مراجعتي... ونَفَد صَبْري... فلا بُدَّ من الأَداء...

○ ○ ○

يَدُ «أبي سعيد»

كان «أبو سعيد» يَقُولُ ذلك في جِدِّيَّةٍ وحَزْم، وسيماءُ[3] الانفعال بادية على وَجْهه..

ولكن... كانَتْ يَدُه لا تَتَوقَّفُ عن تناوُل الطعام...، وهُوَ مُسْتَمِرٌ في الأكْل..، وفَمُهُ كالطَّاحُون لا يتوقَّف عن المَضْغ والبلْع..

○ ○ ○

وصادَف أنْ كان معهما الى المائدة رَجُلٌ من أَقْرباءِ «الثَّقَفِيّ» الْمَدين...

فتضايَقَ من حديث «أبي سعيد»، ولَهْجَتِهِ في

(١) النوال: العطيّة.

(٢) المضروبة: المحدّدة، المتفق عليها.

(٣) سيماء: علامة.

المطالبة، وطريقَتِهِ في التَّعامُل. . . ، وآسْتغْراقِهِ في الأَكْل من غَيْر توقُّفٍ ولا تكلُّف. . .

ولم يَسْتَطِع السُكُوت، فقال لِـ «أبي سعيد»:

- يا «أبا سعيد». . . ألا تَعْلم أَنَّ المسْجِدَ هُوَ المكان الصالح والمناسب للتّقاضي والْخُصومة. . . ، ولَيْس على موائد الناس وفي بُيُوتهم. . !!!

○ ○ ○

غَضْبَةُ «أبي سعيد»

توقّف «أبو سعيد» عن متابعة الأَكْل، وَهَبَّ واقفاً كَمَنْ لدغَتْه[1] عَقْرب. . . ، وآحْمَرَّ وَجْهُهُ من شِدَّةِ الْغَضب، ثم قال موجّهاً كلامَهُ إلى مُحدِّثه:

- يا هذا. . . يَبْدو أنّك لا تَعْرفني حقّ الْمَعْرِفة. . . ، أنا «أبو سعيد المدائنيّ»، المَوْلى. . . ، المشهور بِحُسْنِ التدبير. . دُون إسْرافٍ ولا تَبْذير. . .

○ ○ ○

كراهية الفقر وحُبّ الغنى

وأضاف «أبو سعيد»:

---

(١) لدغته: قرصتْه.



غضبة أبو سعيد.

ـ لقد كَرِهْتُ الْفَقْر لِأَنَّهُ سبب الذُّلّ والمهانة، وأَحْبَبْتُ الغنى لِأَنَّهُ وقاية وحماية،

فحاربْت الْأَوّل مُحاربة لا هوادة فيها، في كُلّ شَأْني وأمْري، ومع الخاصّة والعامة...، وسَعَيْتُ الى الثاني سَعْياً حثيثاً[1] مُتواصلاً، حِرْصاً وتدْبيراً وتَقْديراً...

وإن سمّى الناس ذاك بُخْلاً، فإنّني لا أَعْبَأُ[2] بما يَقُولُون ويَفْترون...

○ ○ ○

عِزَّة وَإِباء

وأضاف؛ وهو لا يزال واقفاً... غاضباً... ثائراً... فقال:

ـ فلا تَظُنَّنَّ من جُلُوسي إلى مائدة قريبك، وتناوُلي طعامه أَنّني أَرْغَبُ في مالِهِ آقتِصاصاً مِنه لِلدَّيْن الّذي عِنْدَه...

وأقْسِمُ بالله الذي لا إله إلا هُو أَنّني ما أَكَلْتُ مَعَهُ طعامه وَشرِبْتُ شرابَهُ إلاّ لِيَسْتَحِي من مُشاركتي له فَيَخْجل ويَسْتَحي، ثم يُعَجّل بِدَفْع المال، وقضاء الدَّين...

---

(١) حثيثاً: مستمراً.

(٢) أعبأ: أهتم.

المفاجأة...

وهنا كانت المفاجأة الّتي لم يَتَوقّعها أَحَد، والّتي لم تكُنْ مُنْتَظرة أبداً..!

لقد أَخْرَج «أبو سعيد» مِنْ جَيْبِهِ (الصَّكّ)، الْورقة التي تُثْبت حقّه في المال... ثُمّ حكّها بِبَعْضها حتى أذْهَبَ ما فيها من الكتابة... ثم قطّعها... ورمى بها إلى الْأَرْض...

○ ○ ○

على رؤوس الأشهاد

ثم فَتَح باب المنْزل، وَوَقَفَ على عَتَبَةِ الدّار، ونادى بأعْلى صَوْتِهِ:

ـ أَيُّها الناس... اشْهَدُوا جميعاً...

لقد كان لي في ذِمَّة صاحب هذه الدار... ألْف دينار...، قد قَبَضْتُها مِنْه بتمامها، وهو بريء الذِّمَّة من كُلّ ما أطالبه به.

○ ○ ○

ثُمَّ آلْتَفَتَ إلى الدّاخل، وَأَلْقى التحيَّة على صاحِبِ الدّار مُوَدِّعاً، وَمَضى خارِجاً، مُتوجِّهاً الى بَيْته.



ثم قطّعها.. ورمى بها إلى الأرض.. ووقف على عتبة الدار، ونادى بأعلى صوته:

- أيها الناس... اشهدوا جميعاً.

بَيْن الثَّقفي وآبْن عَمِّه

بعد أنِ آبْتَعَد «أبو سعيد» عن الدّار، قال الثقفيّ لآبْن عَمِّه مُعاتباً:

- لماذا قُلْتَ لِلرَّجُل ما قُلْت، وهُوَ إلى مائدتي؟

وكيْف تقول ذلك وأنْتَ لا تَعْرف ما بَيْني وبَيْنَهُ مِنْ أسْرارِ الصّلة والصّداقة؟؟

o o oo

فقال ابن العمّ الزائر مُعْتَذِراً:

- لو أنّني كُنْت أُدْرِك ما سَيَحْدُث لما فَعَلْت...، ولكن غلبني غَضَبي...، وسَبَقني غَيْظي...

لقد تضايَقْت وضَجِرْتُ من تَصَرُّفِه...، إذ كان يُطالِبُك بالمال ويَدُهُ لا تَتَوَقّف عن تناوُل الطّعام، فظَنَنْتُ فيه الطّمَعَ والشُّره...[١].

o o o

الإحْسان والإِساءَة

قال الثَّقَفِيُّ:

---

(١) حُبّ الأكْل والاقْبال عليه.

ـ يا ٱبْن عَمّي . . . لقد أَحْسَنْتَ إلى الرَّجُل وأَسَأْتَ إلَيْنا من حَيْثُ لا تَدْري . . .

أَحْسَنْتَ إليه بهذا الموْقف الذي وَقَفَهُ مِنّا، وأَسَأْتَ إلَيْنا بالتَّشْهير الذي حَصَلَ لنا عِنْدَ باب دارنا . . . ، إذْ عَرَفَ كُلُّ الناس بِسُوءِ فِعْلنا . . .

وكذلك ٱضْطرارنا الآن إلى التَّعْجيل بوفاء الدَّيْن رغم الخسارة التي ستلْحق بنا بسبب ذلك!!!

سامَحَكَ الله.

○ ○ ○

يا غُلام

ثم نادى الثقفيُّ على خادِمِه، وقال له:

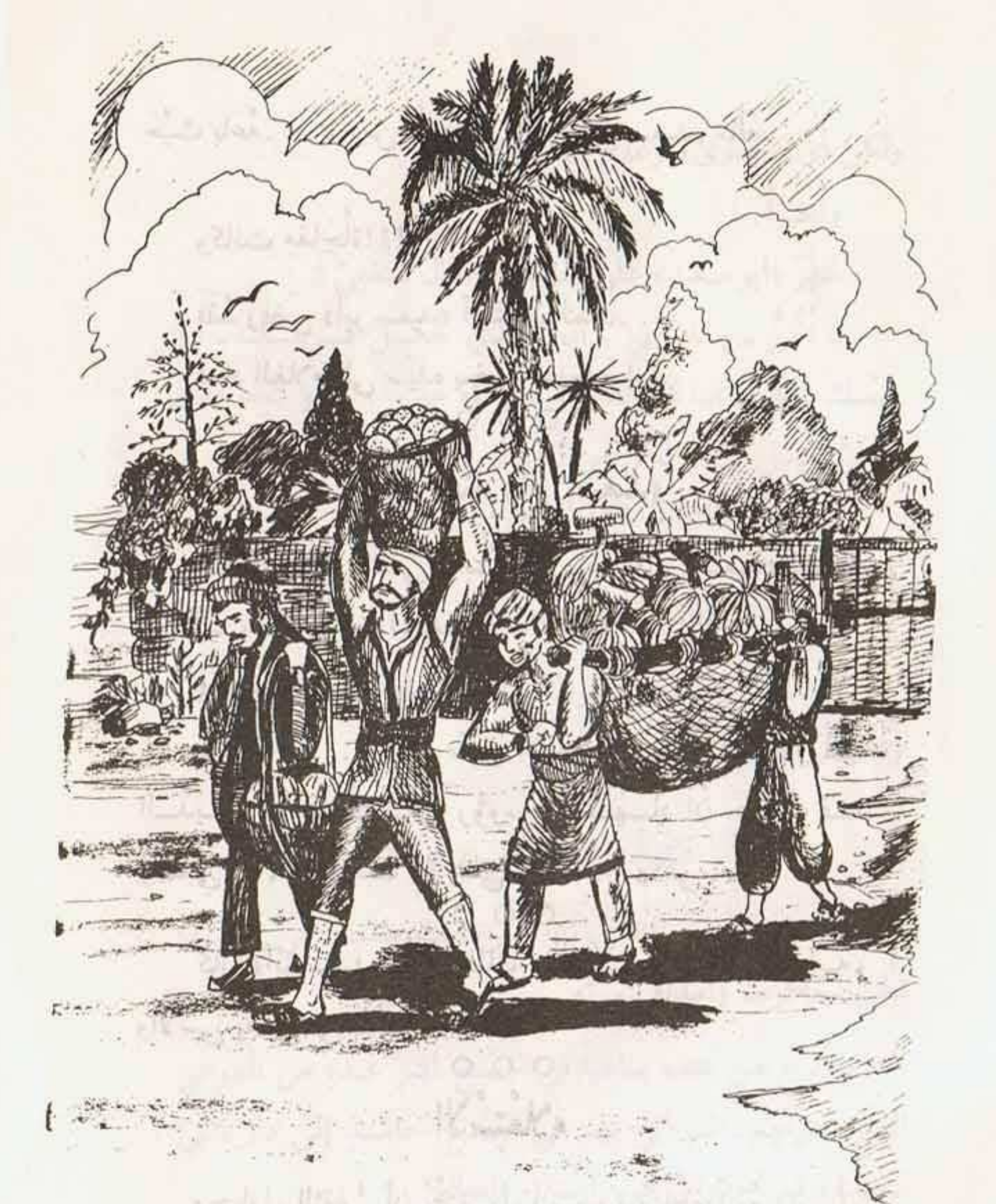
ـ يا غلام . . .

اذْهَبْ إلى الْبُسْتان، وٱجْمَع الثَّمَر . . . ، ثم ٱنْزِلْ بِهِ إلى السّوق وٱعرضْهُ لِلْبَيْع، ثم تَوَجَّه بَعْد ذلك إلى دار «أبي سعيد المدائنيّ» فٱدْفَع له مالَهُ كامِلاً . . .

○ ○ ○

الرَّفْض والإباء

فَفَعلَ الغلام ما أَمَرَهُ بِهِ سيِّده، فَقَصَد الْبُسْتان، ومعه بَعْض العُمّال، فجمَعُوا الثَّمر . . . ، ثم حَمَلُوهُ إلى السُّوق



فقصد البستان، ومعه بعض العمّال، فجمعوا الثمر . . . ثم حملوه الى السوق حيث باعه . .

حَيْث باعَهُ . . . ، ومن ثَمَّ حَمَلَ إلى «أبي سعيدٍ» مالَهُ . . .

○ ○ ○

وكانت مفاجَأة!!!

فَقَدْ رَفَضَ «أبو سعيد» آسْتلام المال . . .

فعاد الغلام إلى سيّده يخبره بما حَصَل .

○ ○ ○

الثَّقَفِيُّ عِنْدَ «أبي سعيد»

عندئذٍ ركب الثّقفيّ دابته وأتى دار «أبي سعيد» لِيَسْأله عن سبب الآمْتناع، وليُعيد إلَيْه ماله شاكِراً مُمْتَنّاً(١).

فآسْتَقْبَله «أبُو سعيد» ثم قال له:

ـ يا أخي . . . لقد سَبَق أنْ مَزَّقْتُ (الصَّكَّ) ـ وَرَقَة الدَّيْن، وأعلنْتُ على رؤوس الأشْهاد أنَّ حَقّي قد وَصَلني . . ، وأشْهَدْتُ الله على ذلك . . . وكفى . . !!

○ ○ ○

كان «أبو سعيدٍ» يَقُول ذلك والْغَضَب ما يَزال يُؤثّر فيه، والأسى يَعْمل في نَفْسِهِ عمله . .

○ ○ ○

الاسْتِعْلاء

وحاول الثقفيُّ أن يُقْنِع «أبا سعيد» مُتَلَطِّفاً ومُواسياً،

(١) الامتنان: الشُّكْر.

ولكن دُون جَدْوى، وعلى غَيْر طائل . . .

وأخيراً . . .

ظَهَرَ «أبو سعيد» على حقيقتِهِ، فقال للثَّقفيّ:

ـ أظُنُّ ـ يا أخي ـ أنَّ الذي جَعَل قريبك ـ ابن عمّك ـ يقول ما قال هو آستعْلاؤه علَيْنا، فهو كما يرى عربيّ أصِيل . . . ونَحْن من الموالي،

أوَ لا يَعْلم أنَّ الإسلام لم يُفَرِّق بَيْننا!!!؟؟

○ ○ ○

على كُلِّ حال . . .

إن أنْتَ جَعَلْتَ شُهُودَك عِنْدي من الْمَوالي قَبِلْتُ، وأخَذْتُ المال وإلّا فلا . . .

○ ○ ○

تنفيذ رَغْبة «أبي سعيد»

عندئذٍ لم يَرَ الثَّقفيُّ بُدّاً من تنفيذ طلب «أبي سعيد» تَطْييباً لخاطره، وتَهْدئةً لِثَوْرَتِهِ . . .

فَخَرج من عنده ساعياً في جَمْع أكبر عَدَدٍ من الموالي الذين يعرفهم، ثم أتى بهم في جَمْعٍ حاشدٍ إلى دار «أبي سعيد»، ثم أخذوا يرجُونَهُ آسْتلام الحال . . .

ففعل . . . ، فَشَكَرَه الثَّقفيُّ وآنْصَرَف .

○ ○ ○



وحاول الثقفي أن يقنع «أبا سعيد» متلطفاً ومواسياً، ولكن دون جدوى، وعلى غير طائل . . .

سلسلة بخلاء الجاحظ

للفتيان

بُخلٌ وعِزّةٌ

محمد علي قطب

